مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

الصديق يعقوب

الاتحاد هو صيرورة أو « تصيير الذاتين واحدة . ولا يكون إلا في العدد من الإثنين فصاعداً»[1].

ومما يتصل بهذا المعنى تعريف الاتحاد بأنه « امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً لاتصال نهايات الاتحاد»[2].

وللاتحاد لدى المناطقة مسميات وأسماء « فالاتحاد في الجنس يسمى مجانسة وفي النوع مماثلة ، وفي الخاصة مشاكلة ، وفي الكيف مشابهة ، وفي الكم مساواة ، وفي الأطراف مطابقة ، وفي الإضافة مناسبة ، وفي وضع الأجزاء موازنة»[3].

ويقرب من هذا المعنى لمصطلح الاتحاد معنى مصطلح آخر هو « الحلول السَّرياني » الذي يعني اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد فيسمى الساري حالاً والمسرى فيه محلاً»[4].

وقد يطلق الاتحاد على « امتزاج شيئين أو أكثر في كل متصل الأجزاء ومنه اتحاد النفس والبدن»[5].

---

(1)تعريفات الجرجاني

(2)المصدر السابق.

(3)المصدر السابق

(4)المصدر السابق.

(5) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية القاهرة.

والاتحاد بين الأشياء يكون على درجات « أدناها درجة الاشتراك البسيط في أمور عرضية ، وأعلاها درجة الاتحاد الصوفي . والمقصود بالاتحاد : أن يكون بين الشيئين علاقة فيشتركان فيها مع احتفاظ كل منهما بهويته . مثال ذلك الاتحاد بطريق التركيب وهو : أن ينضم شيء إلى آخر فيحصل فيهما شيء ثالث . وفي رسالة الحدود لابن سينا الاتحاد هو : حصول جسم واحد بالعدد من اجتماع أجسام كثيرة .

وقد يطلق الاتحاد عند المناطقة على :

1 ـ أشتراك الأشياء في محمول واحد.

2 ـ اشتراك المحمولات في موضوع واحد.

3 ـ اجتماع المحمول والموضوع في ذات واحدة.

4 ـ اجتماع أجسام كثيرة»[6] .

وقد أورد صاحب التعريفات معنى طريفاً للاتحاد يحتاج إلى تأمل ونظر قال : « وقيل : الاتحاد هو : القول من غير روية وفكر »[7] .

ومن بين موضوعات ومصطلحات الفكر الإسلامي أكثر ما يرد مصطلح « الاتحاد » هذا في التصوف وفي نزعات التصوف الفلسفي الاشراقي منه على الخصوص . والباحث عن مدلول هذا المصطلح لا يكاد يجد تحديداً دقيقاً لمدلوله في نصوص الفلاسفة الاشراقيين أنفسهم فهؤلاء يعتبرون ألفاظ اللغة عاجزة عن ملاحقة المواجيد وإنما اضطروا إلى استعمالها من أجل تقريب معاني أحوالهم ومقاماتهم الخاصة إلى العامة . من أجل ذلك اشتهر بين الصوفية وعند دارسيهم أن للتصوف لغة خاصة ملؤها رموز وإشارات لا يفقهها إلا العارفون .

وخير ما نلج به عالم الرموز والإشارات لدى المتصوفة للتعرف على مدلول الاتحاد لديهم هو ما أورده صاحب التعريفات من معاني هذا المصطلح قال : « الاتحاد هو : شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود بالحق فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوماً بنفسه لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال»[8] .

(6) المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا.

(7) تعريفات الجرجاني.

(8)المصدر نفسه.

وتعريف مصطلح « الاتحاد » على هذا الوجه يمهد لهذا المصطلح لدى الصوفية ولا يفصح عن حقيقته لديهم كما تفصح عنها نصوص وأقوال منسوبة لبعضهم .

وضمن المصطلحات التي أوردها ابن عربي في الفتوحات يرد مصطلح « الاتحاد » ولكن ابن عربي لا يفسره تفسيراً صوفياً . إنه يقول : « الاتحاد » تعبير ذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد وهو محال»[9] وربما استعاض ابن عربي عن إيراد المعنى الصوفي لمصطلح « الاتحاد » بإيراد معنى مصطلحين آخرين قال : « الجمع إشارة إلى حق بلا خلق . جمع الجمع الاستهلاك بالكلية في الله»[10].

ويمكن اعتبار « الاتحاد » مصطلحاً وفكرة في تاريخ التصوف الإسلامي إحدى حلقات التطور في هذا اللون من الرياضة الروحية ذات النزعة العرفانية المتطرفة إنه حلقة وسط بين الحلول ووحدة الشهود ووحدة الوجود .

ومع أن مصطلح « الاتحاد » أضحى مصطلحاً عاماً في التصوف الإسلامي إلا أنه ارتبط بدءاً وتطوراً بالصوفي الإشراقي الحسين بن منصور الحلاج المتوفى عام 309هـ مع وضعنا في الاعتبار التمهيدات التي قام بها الجنيد « ت 298هـ» والإضافات التي ألحقها الشهاب السهروردي «ت 587 هـ». فهذا الصوفي المتطرف « الحلاج » هو الذي تبنى هذه الفكرة الطريفة ، وأجهد قلمه من أجل أن يمكن لها لدى الخاصة والعامة لكن العقبة التي واجهته ولم يمكنه التغلب عليها في عمله الفكري ودعواه العرفانية هذه العقبة هي مناقضة هذه الفكرة «الاتحاد» كما روج لها الصوفية لحقيقة عقيدة التوحيد بمفهومها القرآني الجلي ؛ فهذه العقيدة كلما وردت في نص قرآني تستلزم طرفين هما : الله الخالق ، والإنسان المخلوق تربط بينهما بمقتضى البراهين والدلائل علاقة هي إيمان الإنسان المخلوق بالله الواحد الخالق . وثنائية الوجود هذه بما بين طرفيها من فروق لها من براهين الكون ودلائل الفكر ما يتلاشى معه كل ما يناقضها . ومن مناقضاتها هذه النزعات من حلول ووحدة وجود واتحاد موهوم . وأصحاب هذه النزعات لم تفتهم هذه الحقيقة فكانت لهم بحوث ودراسات عن التوحيد ولكن بمنهج التصوف وإشاراته لا بمفهوم القرآن ودلالاته.

---

(9)المصطلحات الصوفية الواردة في كتاب الفتوحات المكية لابن عربي .

(10) المصدر السابق.

لقد ترددت كلمة « التوحيد » كثيراً في أقوال الحلاج ولكن مفرغة من معناها أو بمعنى يقربها من « الاتحاد » الصوفي . وضمن قائمة مؤلفات الحلاج التي تربو على الأربعين نجد كتاباً بعنوان : التوحيد ، وآخر بعنوان : العدل والتوحيد. وهو يخص سورة الإخلاص بمؤلف يفسر فيه هذه السورة .

ولكي نلم بفكرة « الاتحاد » الصوفي باعتبارها نهاية المطاف لهذا الاتجاه الإشراقي الغالي نشير إلى أن من المسلمات في التصوف أن تصفية النفس هي المدخل اللازم إلى عالم الصوفية الغريب فهذه التصفية هي التي تهيء النفس للاتحاد مع الحقيقة الإلهية كما يزعم أصحاب هذا الاتجاه من المتصوفة .

وإذا كان التصوف مقامات وأحوالا فإن المقامات إنما تكون بالكسب والمجاهدة أما الأحوال فإنها منة وعطاء .

وفي تسلسل الأحوال نجد حال « المحبة » التي تعتبر عندهم أساس الاتحاد بالله تعالى.

وإذا كان هناك من الباحثين من يصنف التصوف الإسلامي في اتجاهين أحدهما عرفاني إشراقي ، والآخر شعبي اتخذ شكلاً ملموساً يتمثل في الطرق الصوفية[11] فإن الحلاج صاحب فكرة « الاتحاد » وشيعته قد ساروا في الاتجاه الأول إلى أبعد مدى حتى تجاوزا مدلولات نصوص النقل وما يمكن أن تحتمله من معاني وتأويلات بعيدة وغريبة . وفي هذا الجو الإشراقي أو الاتجاه العرفاني كان البحث في علاقة المخلوقات بخالقها وفي تركيب العالم وحلول الإله في نفس الصوفي أو الوحدة بين « الأنا » الإنساني و« الأنا » الإلهي .

ويلاحظ أن فكرة الاتحاد الحلاجية هذه تكشف عن خلط عجيب ومزج غريب بين عقائد دينية متباينة ومذاهب فلسفية متضاربة ونزعات صوفية شرقية وغربية وهذا ما تجمع عليه الدراسات أو تكاد . ويبدو أن أظهر هذه المؤثرات تأثيراً في ظهور فكرة الاتحاد العقيدة النصرانية الشائعة ومباحث اللاهوت المسيحي : فقضية الأقاليم واتحادها من القضايا التي عني بها اللاهوت المسيحي وشغلت حيزاً في دراسات المسيحيين وأظهر ما كان ذلك بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن وظهور الدعوة الإسلامية .

(11)ص 246 من كتاب تراث الإسلام القسم الثاني .

ومهما يكن من أمر فكرة أو خاطرة الاتحاد هذه لدى الحلاج وشيعته من غلاة « المتصوفة فإنها منضومة في مسلك هذه الأفكار والمذاهب والنزعات المتطرفة التي تحمل عامل هدمها ، والتي لا تكاد تظهر حتى تختفي .

وإذ ظن بعض المناهضين لعقيدة التوحيد بوحي من مسلمات عقدية مخالفة أن فكرة الاتحاد لدى بعض المتصوفة قد ألقت ظلالاً من الشك حول مفهوم التوحيد فقد كان من متممات ذلك أن يجيء هؤلاء ليحيوا ذكرى الحلاج من جديد . وكان هذا الإشراقي وتراثه بحثاً وتحقيقاً ودراسة وترجمة ونشراً من نصيب المستشرق الفرنسي لوماسنيون . دراسات أكاديمية وبحوث مستقلة ومقالات في الموسوعات والدوريات . وكتب هذا المستشرق عن : الحلاج شهيد الصوفية في الإسلام . وعن تطوره الروحي وعن تصوره لرسالته وعن الأسانيد الحلاجية . وعن المدارس الكلامية والحلاج . وعن أسطورة الحلاج الشعبية . وكتب فيما كتب عن « المراحل البطيئة الصعبة لإدماج هذا الرجل ـ الحلاج ـ المولع بعشق الواحد في داخل الشعور الديني للأمة الإسلامية . . ولم يكن ماسنيون محقاً فيما قال إذ الواقع أنه لم يكن في شعور هذه الأمة في أي فترة من تاريخها ـ حتى في حياة الحلاج ـ شيء من ظن هذا المستشرق . وكتب بدون سند .

وباعتبار ما قد تحدثه فكرة أو فرية الاتحاد الصوفية هذه من أثر سيء في عقائد العامة فقد جرد نفر من أعلام الفكر الإسلامي أقلامهم لدحضها وردها دفاعاً عن عقيدة التوحيد : فأبو نعيم الأصبهاني في كتابه : حلية الأولياء يتناول معتقدات الصوفية ومنها وحدة الوجود والحلول والاتحاد بالنقد والمعارضة، وابن الجوزي يجرد قلمه فتشتد وطأته على هذا اللون من التصوف الغالي[14]، وعبد القاهر البغدادي يسرد بعض الأقاويل المنسوبة إلى صاحب نحلة الاتحاد[15]، وابن حزم صاحب الفصل يعد مجموعة من المذاهب والطوائف الغالية التي تدعي الإسلام وليست منه في شيء . ويذكر من هؤلاء « من قال بحلول الباري تعالى في أجسام خلقه كالحلاج»[16] .

(12)ص 247 المصدر السابق .

(13)ص 84 شخصيات قلقة .

(14) ص 131 الكتاب التذكاري .

(15) 246 الفرق بين الفرق للبغدادي .

(16) 2 /114 الفصل لابن حزم .

وللشيخ ابن تيمية رسالة في الرد على الغلاة من المتصوفة رد فيها على المتمذهبين بوحدة الوجود ، والقائلين بالحلول والاتحاد . نشر هذه الرسالة صاحب المنار ضمن مجموعة رسائل ابن تيمية[17].

وللعلامة برهان الدين البقاعي رسالة بعنوان : تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد وقد نشر هذه الرسالة محققه الاستاذ عبد الرحمن الوكيل بمطبعة السنة المحمدية[18].

ولابن طولون رسالة عنوانها : تحذير العباد من الحلول والاتحاد أشار إليها الأستاذ عباس الغزاوي في بحثه عن ابن عربي وغلاة التصوف ويظهر من عبارة الباحث أن هذه الرسالة ما زالت مخطوطة[19].

وللعلامة فخر الدين الرازي رد على الذين يقولون بالاتحاد المنافي للعقيدة الإسلامية في التوحيد وذلك ضمن كتاب : المسائل الخمسون[20].

وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي عارض هذه النزعات المتطرفة في التصوف ومنها نزعة الاتحاد والحلول ، وعارض ذلك وقاومه بكل حجة ودليل فأعلن أنه لا يليق بصاحب الكشف والمشاهدة أن يقول بما يتعارض مع العقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد الخالص التي تفرق بين العبد والرب وتؤكد أن الرب رب والعبد عبد [21].

ومع أن الجنيد من كبار الصوفية وله نزعة إشراقية وكانت له شطحات إلا أنه . . كان يستنكر تطرف الحلاج»[22].

---

(17) 131 الكتاب التذكاري

(18) 131 الكتاب التذكاري

(19) 131 الكتاب التذكاري.

(20) 146 مدخل إلى التصوف الإسلامي أبو الوفا التفتازاني.

(21) 75 من كتاب الدكتور إبراهيم هلال : التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة .

(22) 75/4 تاريخ الأدب العربي بروكلمان.

المراجع

1ـ أبو الحسن الجرجاني : التعريفات . طبعة مصطفى الحلبي . القاهرة . 1357هـ.

2 ـ محي الدين ابن عربي : المصطلحات الصوفية الواردة في كتاب الفتوحات المكية . طبع بذيل التعريفات للجرجاني .

3 ـ عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت 1400هـ.

4 ـ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم :الفصل في الملل والأهواء والنحل . المطبعة الأدبية بمصر 1317 هـ .

5 ـ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي . الجزء الرابع من الترجمة العربية . دار المعارف القاهرة 1977.

6 ـ فؤاد سيزكين : تاريخ التراث العربي . الجزء الثاني من الترجمة العربية . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979 .

7 ـ لويس غردية وجورج قنواتي : فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام . الجزء الأول من الترجمة العربية . بيروت ط 1978/2.

8 ـ الدكتور محمد علي أبو ريان : أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي . القاهرة . مكتبة الانجلو 1959 .

9 ـ شخصيات قلقة في الإسلام ، دراسات استشراقية جمع وترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، القاهرة 1964.

10 ـ الدكتور محمد غلاب : المعرفة عند مفكري المسلمين . القاهرة 1966.